

الفصل الثاني

دور العقل في تمحيص السنة عند المحدثين

المبحث الأول

تمحيص السنة بالعقل في عهد الرسول ﷺ

وصحابته رضوان الله عليهم

لقد اهتم المحدثون بتمحيص السنة بالعقل، لمعرفة صحيح السنة من سقيمها، ولم يكن هذا بدعة ابتدعوها من أنفسهم فإن نصوص الوحي المنزل تدعو إلى الاهتمام بالعقل، والنظر به في آفاق السماوات والأرض؛ ليعرف صاحبه الحق من الباطل، قال تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) وقد امتدح الله أصحاب العقول بقوله جل وعلا: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۚ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَيْنَاهُمْ لِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْآلِفُونَ ﴾ (٢) وبين سبحانه أن أصحاب العقول العليمة هم الذين يعقلون كلامه: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۚ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٣).

ولقد أرشد إلى ذلك رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، في بعض المواقف التي يلفت فيها انتباه الصحابة . رضوان الله عليهم . إلى استعمال العقل والنظر به في المحسوسات الظاهرة للعيان، لمعرفة الحق من الباطل والضار من النافع.

(١) سورة البقرة: آية ١٦٤.

(٢) سورة الزمر: آية ١٧، ١٨.

(٣) سورة العنكبوت: آية ٤٣.

ومن ذلك ما جاء عن جُدّامة بنت وهب الأسديّة . رضي الله عنهما . ، قالت :
 حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس ، وهو يقول : "لقد هممت أن أنهي عن
 الغيلة ، فنظرت في الروم وفارس ، فإذا هم يُغِيلُونَ أولادهم ، فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً" .^(١)
 والغيلة : الاسم من الغيل ، وهو : أن يجامع الرجل زوجته وهي مرضع .^(٢)
 قال النووي : "قال العلماء سبب همه صلى الله عليه وسلم بالنهي عنها أنه يخاف منه
 ضرر الولد الرضيع ، قالوا : والأطباء يقولون : إن ذلك داء ، والعرب تكرهه ، وتقيه . وفي
 الحديث جواز الغيلة ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم ينه عنها ، وبين سبب ترك النهي" .^(٣)
 يعني : أنه رأى فارس والروم يفعلونه ولم يضر أولادهم .

ولقد سار على ذلك الصحابة . رضوان الله عليهم . فكانوا يتدارسون ما يرويه بعضهم
 عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وينظرون في مدى موافقته للثوابت الصحيحة ، ليطمئنوا إلى
 أنه من قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن الناقل لم يُخطئ في نقله .
 ومن ذلك ما ذكره الزركشي ، قال : "ذكر منصور البغدادي بإسناده ... عن يحيى بن
 عبد الرحمن بن حاطب ، عن أبي هريرة . رضي الله عنه . أنه قال : "من غسل ميتاً اغتسل ،
 ومن حمله توضأ" . فبلغ ذلك عائشة . رضي الله عنها . فقالت : "أو نجس موتى المسلمين؟ وما
 على رجل لو حمل عوداً!" .^(٤)

^(١) رواه مسلم في "صحيحه" : كتاب النكاح ، باب جواز الغيلة ، ١٠٦٧/٢ (١٤٤٢) .

^(٢) انظر : النهاية في غريب الحديث ، ٣٣٤/٢ .

^(٣) شرح صحيح مسلم ، ١٦/١٠ .

^(٤) الإجابة لإيراد ما استدركه عائشة على الصحابة ، للزركشي ، ص ١١١ . وقال فيه الزركشي : "اعلم أن
 جماعة من الصحابة رووا هذا الحديث ، ولم يذكروا فيه الوضوء من حمله ، منهم عائشة : أخرجه أبو داود ،
 ومنهم حذيفة : أخرجه البيهقي ، وهو يقوي إنكار عائشة ، لكن قال البيهقي : الروايات المرفوعة في هذا
 الباب عن أبي هريرة غير قوية ؛ لجهالة بعض رواتها ، و ضعف بعضهم ، والصحيح أنه موقوف على أبي
 هريرة" . اه وانظر تفصيل ذلك في : معرفة السنن والآثار ، للبيهقي ، ٣٥٨/١ ، ٣٥٩ (٤٦٠) .

المبحث الثاني

تمحيص السنة بالعقل عند المحدثين بعد عصر الصحابة

ثم جاء بعد ذلك المحدثون بعد عصر الصحابة وكانوا يقفون عند معنى الأحاديث، وينقدون متونها، بالإضافة إلى نقد الأسانيد.

وكانت رواية من جمع بين الرواية والدراية مقدّمة على من اكتفى بالرواية، لأن صاحب الدراية أبعد عن التصحيف في المتن، والقلب والإدراج فيها، وأقرب إلى فهم المعنى الذي يمنع صاحبه من الوقوع في كثير من المحاذير.^(١)

ومن طرق المحدثين في نقد المتن، عرضها على دلالات العقل، الذي به وبغيره من الثوابت الصحيحة، يتميز الحق من الباطل.

قال الخطيب البغدادي: "وكل خير واحد دل العقل، أو نص الكتاب، أو الثابت من الأخبار، أو الإجماع، أو الأدلة الثابتة المعلومة على صحته؛ وجد خبر آخر يعارضه، فإنه يجب اطراح ذلك المعارض، والعمل بالثابت الصحيح".^(٢)

وقال - أيضاً -: "والأخبار كلها على ثلاثة أضرب، فضرب منها يعلم صحته، وضرب منها يعلم فساده، وضرب منها لا سبيل إلى العلم بكونه على واحد من الأمرين دون الآخر. أما الضرب الأول، وهو ما يعلم صحته، فالطريق إلى معرفته . إن لم يتواتر حتى يقع العلم الضروري به . أن يكون مما تدل العقول على موجهه، كالأخبار عن حدث الأجسام، وإثبات الصانع، ونظائر ذلك مما أدلة العقول تقتضي صحته وأما الضرب الثاني، وهو ما يعلم فساده، فالطريق إلى معرفته أن يكون مما تدفع العقول صحته بموضوعها، والأدلة المنصوصة فيها، نحو الأخبار عن قدم الأجسام، ونفي الصانع، وما أشبه ذلك".^(٣)

فانظر إلى اعتماده . رحمه الله . في إثبات ما يُعلم صحته من فساده، على دلالة العقل.

(١) انظر: الكفاية في علم الرواية، ص ٤٣٦.

(٢) الموضوع السابق.

(٣) المرجع السابق، ص ١٧.

وقد جعل المحدثون علامات لمعرفة الحديث الموضوع، وأكثرها تدور حول المتن، ومن ذلك الكثير مرء معرفته إلى العقل.

فانظر إلى ابن الجوزي وهو يقول: "كل حديث رأيت يخالف المعقول، أو يناقض الأصول، فاعلم أنه موضوع".^(١)

ويقول ابن الصلاح: "وقد يفهمون الوضع من قرينة حال الراوي أو المروي، فقد وضعت أحاديث طويلة يشهد بوضعها ركافة ألفاظها ومعانيها".^(٢)

وركافة الألفاظ والمعاني مردها في الغالب إلى دلالة العقل.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية . في حديث: "من أكل مع مغفور له غفر له" :-
"ليس معناه صحيحاً على الإطلاق، فقد يأكل مع المسلمين الكفار والمنافقون".^(٣)

فها هو . رحمه الله . ينقد الحديث بناء على استنباطات عقلية، مبنية على الحس والمشاهدة.

وجعل ابن القيم في كتابه "المنار المنيف"، علامات يُعرف بها وضع الحديث، فقال:

"ونحن ننبه على أمور كلية يعرف بها كون الحديث موضوعاً:

فمنها تكذيب الحس له، كحديث: "الباذنجان لما أكل له". و"الباذنجان شفاء من كل داء". فلو أكل الباذنجان للحمي والسوداء الغالبة، وكثير من الأمراض، لم يزد لها إلا شدة، ولو أكله فقير ليستغني لم يفده الغني، أو جاهل ليتعلم لم يفده العلم".^(٤)

^(١) الموضوعات، ٦٥/١.

^(٢) مقدمة ابن الصلاح، ص ٤٧.

^(٣) أحاديث القصاص، ص ٩٢، حديث ٣٦.

^(٤) المنار المنيف، ص ٣١. إلا إني أقول: إنه لو صح مثل ذلك لما رددناه، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول . مثلاً :- "ماء زمزم لما شرب له". رواه أحمد، ٣٥٧/٣ (١٤٨٩٢)، وابن ماجه، ١٠١٨/٢ (٣٠٦٢)، من حديث جابر بن عبد الله. ورواه الحاكم، ٦٤٦/١ (١٧٣٩)، من حديث ابن عباس، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد إن سلم من الجارودي (أحد رواة الإسناد)"، ووافقه الذهبي. وحسن إسناده المنذري من حديث ابن عباس (انظر: البدر المنير، ٣٠٠/٦). وأمثال ذلك مما ورد فيه الشفاء، كالحبة السوداء، وغيرها، فقد يوجد من يشرب ماء زمزم، أو يأكل الحبة السوداء، بنية ماء، ولا يحصل له

وذكر أيضا الأحاديث التي يُذكر فيها أن الخضر لا يزال حياً، وذكر أن كلها موضوعة، كحديث: "أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في المسجد، فسمع كلاماً من ورائه، فذهبوا ينظرون، فإذا هو الخضر". وغيرها من الأحاديث.

ثم قال: "والدليل على أن الخضر ليس بياق في الدنيا أربعة أشياء: القرآن، والسنة، وإجماع المحققين من العلماء، والمعقول".

ثم قال: "أما الدليل من المعقول: فمن عشرة أوجه"، وعد هذه الأوجه. ^(١)

وأكثر العلامات التي ذكرها ابن القيم، في كتابه "المنار المنيف"، في معرفة الحديث الموضوع مردها إلى العقل، كاشتماله على مجازفات لا يقول مثلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسماجة الحديث، وكونه مما يسخر منه، وأن يكون كلامه لا يشبه كلام الأنبياء، وأن يكون الحديث باطلاً في نفسه. ^(٢)

وقال ابن حجر: "جعل الأصوليون من دلائل الوضع أن يخالف العقل ولا يقبل تأويلاً، لأنه لا يجوز أن يرد الشرع بما يناهض مقتضى العقل....، ويلتحق به ما يدفعه الحس والمشاهدة كالخبر عن الجمع بين الضدين، وقول الإنسان أنا الآن طائر في الهواء، أو أن مكة لا وجود لها في الخارج... ومنها: أن يكون مما يلزم المكلفين علمه وقطع العذر فيه، فينفرد به واحد". ^(٣)

وكل هذه الأقوال تدل على أن المحدثين . رحمهم الله . نقدوا المتن بدلالة العقل، كما نقدوه بدلالة الكتاب والسنة الصحيحة.

مراده، فإن هذا وأمثاله لا نضعفه . إذا صح سنده . بسبب ذلك، بل نقول: إن هذا يحصل به الأثر إذا انتفت الموانع أو توفرت الشروط، والله أعلم.

^(١) انظر: المنار المنيف، ص ٣٨-٤١.

^(٢) ينظر كتاب: المنار المنيف.

^(٣) التكت على ابن الصلاح، ص ٣٦١.

المبحث الثالث

شروط الحديث الصحيح عند علماء المصطلح وعلاقتها بنقد المتن

وضع علماء مصطلح الحديث شروطاً لمعرفة الحديث الصحيح الذي يُحتج به، بناء على استقراءهم لكلام المحدثين وتطبيقاتهم في عهد التدوين، والعديد منها يدور حول نقد المتن، ومنه نقد المتن بدلالة العقل.

يقول ابن الصلاح - إمام هذا الفن - في حد الحديث الصحيح: "هو الحديث المسند، الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط، عن العدل الضابط، إلى منتهاه، ولا يكون شاذاً، ولا معللاً".^(١)

والشاذ، هو: أن يخالف الثقة من هو أوثق منه. وله معانٍ أخرى.

والمعلل: الحديث الذي أُطْلِع فيه على علة خفية قاذحة.^(٢)

ثم قال ابن الصلاح: "قولهم: هذا حديث صحيح الإسناد، أو حسن الإسناد. دون قولهم: هذا حديث صحيح، أو حديث حسن؛ لأنه قد يقال: هذا حديث صحيح الإسناد. ولا يصح لكونه شاذاً أو معللاً".^(٣)

وهذان الشرطان - أعني نفي الشذوذ والعلة - قد يقعان في المتن كما يقعان في السند. ومن أمثلة الشذوذ في المتن: ما رواه البيهقي، في "الأسماء والصفات"، بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ

(١) مقدمة ابن الصلاح، ص ٨.

(٢) انظر الشذوذ والعلة: نزهة النظر، ص ١٩. وتدريب الراوي، ص ٦٠-٦٢.

(٣) مقدمة ابن الصلاح، ص ١٩.

مِثْلَهُنَّ ٤. ^(١) قال: "سبع أراضين، في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى".

قال البيهقي: "إسناده صحيح، وهو شاذ بكرة، ولا أعلم لأبي الضحى عليه متابعا". ^(٢)
قال السيوطي: "وهذا الكلام من البيهقي في غاية الحسن، فإنه لا يلزم من صحة الإسناد صحة المتن. كما تقرر في علوم الحديث؛ لاحتمال أن يصح الإسناد ويكون في المتن شذوذ أو علة تمنع صحته". ^(٣)

وكذا كثير من أنواع علوم الحديث، التي بمعرفتها يتميز الحديث الصحيح من غيره، تكون في المتن كما تكون في السند، فينقد المتن من خلالها وإن كان الإسناد صحيحاً؛ كالمنكر. إن قلنا: إنه غير الشاذ، وزيادة الثقات، والمضطرب، والمدرج، والمقلوب، وغير ذلك.

ومن أمثلة ذلك فيما يتعلق بنقد المتن، ومرده إلى دلالة العقل ومخالفة الواقع، وهو من نوع المدرج:

ما رواه البخاري بسنده، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "للعبد المملوك الصالح أجران. والذي نفسي بيده، لولا الجهاد في سبيل الله، والحج، وبر أمي، لأحببت أن أموت وأنا مملوك". ^(٤)

قال السيوطي: "فقوله: والذي نفسي بيده... الخ، من كلام أبي هريرة؛ لأنه يتمتع منه ﷺ أن يتمنى الرق، ولأن أمه لم تكن موجودة إذ ذاك حتى يبرها". ^(٥)

وعليه فقد اهتم المحدثون - رحمهم الله - بنقد المتن كما اهتموا بنقد السند، وإن كان اهتمامهم منصباً أكثر على نقد السند؛ لأن الأصل في صحة الأخبار أو عدمها مبني على

^(١) سورة الطلاق: آية ١٢.

^(٢) الأسماء والصفات، ٥٤٩/١.

^(٣) نقله صديق القنوجي، في "أبجد العلوم"، ٤٤١/١. وانظر: الحاوي للفتاوي، للسيوطي، ٣٧٢/١.

^(٤) صحيح البخاري: كتاب العتق، باب العبد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده، ٩٠٠/٢ (٢٤١٠).

^(٥) تدريب الراوي، ص ٢٤٠.

صدق الراوي وضبطه، أو كذبه ونسيانه، فإن الإنسان بطبعه إذا أخبره رجل يثق فيه، ويعلم شدة صدقه وضبطه، وتخبره في الأخبار، بأنه سمع أو رأى أمراً . ولو كان غريباً . فإن نفسه تسارع إلى تصديقه، أما إذا كان المُخبر له عُرف عنه الكذب، أو الغفلة والنسيان، فإن نفسه تميل إلى التشكيك في هذا الخبر، ولو كان الخبر غير مستنكر.

وفي ذلك يقول الإمام الشافعي . رحمه الله . : "ولا يستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه إلا بصدق المخبر وكذبه، إلا في الخاص القليل من الحديث، وذلك أن يستدل على الصدق والكذب فيه بأن يحدث المحدث ما لا يجوز أن يكون مثله".^(١)

والعقول متفاوتة . كما ذكرنا . فما يراه البعض مخالفاً للعقل، قد يراه الآخرون خلاف ذلك، أما إذا سلمنا بالنقل بعد صدق المخبر، فإن هذا مما تأتلف عليه القلوب.

(١) الرسالة، ص ٣٩٩.

الفصل الثالث

عرض لبعض كتابات المعاصرين في تمحيص السنة بالعقل ومناقشتها

تمهيد

بيان ميدان المناقشة

لست هنا بصدد استقصاء كتابات المعاصرين في موضوع تمحيص السنة بالعقل، وإنما سأكتفي بما كتبه الكاتب جعفر السبحاني، في كتابه "الحديث النبوي بين الرواية والدراية"، تحت مبحث: "منهجنا في تمحيص السنة: عرض الحديث على العقل الحصيف"، والكاتب خالد بن مبارك الوهبي، في بحثه: "كيف نتعامل مع السنة النبوية"، لأنهما حديثا الساعة، وكلا الباحثين معروضان على الشبكة العالمية (الإنترنت)، وقت كتابة هذا البحث.

وأيضاً فلن أستقصي كل ما كتبه الباحثان، وإنما سأكتفي ببعض الشُّبه التي ذكرها، مع ذكر قواعد رئيسة في الموضوع، وعلى القارئ أن ينحو نحو ما ذكرت في الجواب على المسائل الأخرى التي لم يتم طرحها.

المبحث الأول

صفات الله تعالى

يقول جعفر السبحاني: "فمنطق العقل القطعي يعد مقياساً لتصحيح ما يعزى إلى منطق الوحي، وما لا يعزى إليه، وعلى ضوء ذلك فالروايات الصريحة في إثبات الجهة لله تبارك وتعالى، وفي إثبات الجبر، وسلب الحرية والاختيار عن الإنسان فيما ينطأ به الإيمان والكفر، كلها تخالف العقل الحصيف ... كما أن الموجود في جهة موجود محدود، والمحدود من آثار الإمكان، وهو سبحانه منزّه عنه وعن آثاره".^(١)

ويقول: "فأكثر المحدثين المغترين بروايات مستسلمة أهل الكتاب، ككعب الأخبار، وتميم الداري، ووهب بن منبه، وغيرهم، ممن بثوا في الأوساط الإسلامية الإسرائيلية والمسيحية، كانوا هم القائلين بالجبر والتجسيم والتشبيه".^(٢)

ويقول خالد بن مبارك الوهبي: "وروايات التجسيم والتشبيه هي مخالفة لقواطع النصوص القرآنية، التي تنزه الله سبحانه وتعالى عن الأنداد والأشباه والأضداد: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾"^(٣)، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾"^(٤)، ﴿فَلَا تَضَرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾"^(٥)،^(٦)

تتضمن هذه النقول ما يلي:

١- أن الروايات الصريحة في إثبات الجهة لله تخالف العقل.

^(١) الحديث النبوي بين الرواية والدراية، للسبحاني، ص ٦٢، ٦٣.

^(٢) المرجع السابق، ص ٦٤.

^(٣) سورة الشورى: آية ١١.

^(٤) سورة الأنعام: آية ١٠٣.

^(٥) سورة النحل: آية ٧٤.

^(٦) كيف نتعامل مع السنة النبوية، للوهبي، ص ٤.

- ٢- أن الروايات الصريحة في إثبات الجبر، وسلب الاختيار عن الإنسان، فيما يناط به من الإيمان والكفر، تخالف العقل.
- ٣- أن الروايات الدالة على التجسيم والتشبيه (إثبات الصفات) مروية عن مستسلمة أهل الكتاب، وهي روايات إسرائيلية ومسيحية.
- ٤- أن الروايات الدالة على التجسيم والتشبيه (إثبات الصفات) مخالفة للنصوص القرآنية.

والجواب على ذلك من وجوه:

الأول: أن إثبات الجهة لله تبارك وتعالى، وهي الفوقية والعلو له سبحانه، لم يثبت بالسنة فقط، بل ثبت بالكتاب العزيز، يقول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ ﴾^(١) ويقول سبحانه: ﴿ تَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ۖ ﴾^(٢) ويقول جل وعلا: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ ﴾^(٣) ويقول تقدست أسمائه وصفاته: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ۖ ﴾^(٤) والآيات في هذا كثيرة.

أما تأويل هذه الآيات عند نفاة الصفات، وما سنعرضه من آيات في ذلك، فإن الكلام حول ذلك يطول، وكما قال شارح العقيدة الطحاوية: "و لا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويجرفها عن مواضعها، إلا وجد إلى ذلك من السبيل، وهو الذي أفسد الدنيا والدين".^(٥)

(١) سورة الأنعام: آية ٦١.

(٢) سورة النحل: آية ٥٠.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

(٤) سورة فاطر: آية ١٠.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، ص ١٨٩.

الثاني: أن العقل الصريح يثبت لله العلو، فإن ذلك أمر مفطور في قلوب الناس، يعلمون بالضرورة أن الله فوق، وإذا وقع أحدهم في اضطراب نظر إلى العلو، يستلهم المدد من الله، والخلق جميعاً بفطرتهم السليمة يرفعون أيديهم ويقصدون جهة العلو عند الدعاء والتضرع إلى الله تعالى.

الثالث: أن المحدثين لا يقولون بالجبر وسلب الحرية والاختيار للعبد، وما صححوه من الأحاديث ليس فيه ذلك، بل هم وسط بين الجبرية . وعلى رأسهم الجهم بن صفوان . والقدرية نفاة القدر.

أما الجبرية فهم القائلون بأن العبد مجبور على فعله وحركاته، وهي كلها اضطرارية، كحركات المرتعش، والعروق النابضة. وقابلتهم القدرية . ومنهم المعتزلة . فقالوا: إن جميع أفعال العباد اختيارية لهم، لا تعلق لها بخلق الله، وأن الله لم يردها ولم يشأها.^(١)

أما المحدثون من أهل السنة فيعتقدون أن الله مشيئة، وللخلق مشيئة واختياراً تابعين لمشيئة الله، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، والعباد فاعلون حقيقة لأعمالهم ولهم كسب وإرادة، والله خلقهم وخلق أعمالهم وإرادتهم.^(٢)

الرابع: أن عقيدة المحدثين من أهل السنة في القدر . والتي سبق ذكرها . لم ترد في السنة فحسب، بل وردت في القرآن الكريم، الذي تكرم الباحثان بتحاكمهما إليه، يقول الله تعالى في بيان مشيئته: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ ^(٣) . ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ۖ ﴾ ^(٤) وذكر سبحانه أنه خلق العباد وأعمالهم: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ

(١) انظر: المرجع السابق، ص ٤٣٦.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ٤٤، ٤٥.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٥٣.

(٤) سورة الأنعام: آية ١٢٥.

وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ ومع ذلك فأعمال العباد إليهم تنسب، ويجازون على أعمالهم المضافة إليهم، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾^(١) ويقول سبحانه: ﴿وَبَلَدَ الْجَنَّةِ الَّتِي أَوْثَقْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢) وجمع الله بين مشيئته ومشئته العباد في قوله جل وعلا: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾^(٣) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠١﴾^(٤)

وهذا فيه مصداق لما جاء في السنة، وتصديق لعمل المحدثين فيما صححوه من الأحاديث الدالة على ذلك، إذا أردنا أن ننقد المتن بالثوابت الصحيحة.

الخامس: أن المحدثين من أهل السنة، ليسوا بالمجسمة المشبهة. كما يقول الكاتبان. ولكنهم وسط بين المشبهة والمعطلة، فأهل السنة يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تشبيه، فلا يُقال سمع كسمعنا، ولا بصر كبصرنا، ونحو ذلك، وكذلك من غير تعطيل، فلا ننفي عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به أعرف الناس به، رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. ففي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، رد على الممثلة المشبهة، وفي قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٥)، رد على النفاة المعطلة.^(٦)

والعجيب أن خالد الوهبي نقل في كلامه قول الله تعالى: (ليس كمثله شيء)، ووقف عند ذلك، ولم يكمل الآية: (وهو السميع البصير).

(١) سورة الصافات: آية ٩٦.

(٢) سورة البقرة: آية ١٩٧.

(٣) سورة الزخرف: آية ٧٢.

(٤) سورة التکویر: آية ٢٨، ٢٩.

(٥) سورة الشورى: آية ١١.

(٦) هذا شرح المغيرة الطحاوي، ص ٩٨، ٩٩، ١٠٠.

السادس: أن إثبات الصفات لله تعالى لم تثبت بطريق السنة فحسب، بل تثبت بالقرآن الكريم، يقول الله تعالى في صفة المحبة: ﴿ وَأَحْسِنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) ويقول في صفة المغفرة: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٢) ويقول في صفة الرحمة: ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) ويقول في صفة الرضا: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (٤) ويقول في صفة الغضب: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ﴾ (٥) إلى غير ذلك من آيات الصفات، وهي كثيرة في القرآن، وهذا فيه تصديق لعمل المحدثين فيما صححوه من الأحاديث الدالة على ذلك، إذا أردنا أن نقد المتن بالثوابت الصحيحة.

السابع: أن صفات الله تعالى لا تثبت بالعقل، وإنما تثبت بالشرع، فهي توقيفية، يتوقف إثباتها على ما جاء عن الشرع، فلا يزداد فيها ولا ينقص، لأن العقل مهما بلغ من الكمال فإنه لا يمكنه إدراك ما يستحقه الله سبحانه من الصفات، فهو الله الذي وسع كرسيه السماوات والأرض، فوجب التسليم في ذلك بما أخبر به الشرع.

الثامن: أما قول جعفر السبحاني: "فاكثر المحدثين، المغترين بروايات مستسلمة أهل الكتاب، ككعب الأحبار، وقيم الداري، ووهب بن منبه، وغيرهم، ممن بثوا في الأوساط الإسلامية الإسرائيلية والمسيحية، كانوا هم القاتلين بالجبر والتجسيم والتشبيه". اهـ. فليت شعري، لو أجهد السبحاني نفسه قليلاً، وقلب صحيح البخاري ومسلم، لوجد أن

(١) سورة البقرة: آية ١٩٥.

(٢) سورة ص: آية ٣٨.

(٣) سورة الدخان: آية ٤٢.

(٤) سورة البينة: آية ٨.

(٥) سورة النساء: آية ٩٣.

كل ما فيهما من الروايات التي فيها إثبات الصفات والقدر هي من غير طريق من ذكرهم
من الصحابة والتابعين، إلا النادر، ولولا خشية الإطالة لسردت الكثير من ذلك.
ثم إن الصحابي سواء كان قبل إسلامه من أهل الكتاب أم لا، لا يمكن أن يقول لنا:
قال رسول الله كذا، ويكون قد نقله من الإسرائيليات، فهذا كذب، وهم أبعد الناس عن
ذلك.

المبحث الثاني

أحاديث العقل

يقول جعفر السبحاني:

"والعجب أن بعض المقتصرين على الضوابط المقررة في علم الحديث، بغية تمييز الصحيح عن السقيم، يتجح عند نقد روايات العقل، ويقول: ومما يحسن التنبيه عليه أن كل ما ورد في فضل العقل من الأحاديث لا يصح منها شيء، وهي تدور بين الضعف والوضع.^(١) ثم ^(٢) نقل عن ابن قيم الجوزية قوله: "أحاديث العقل كلها كذب".^(٣) وأول حديث نقده ذلك البعض، هو حديث: "الدين هو العقل، ومن لا دين له لا عقل له".^(٤) وذكر في موضع آخر بأن رواية: "قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له" موضوعة.^(٥)

أقول (السبحاني): إن الغاية من وراء تضعيف أحاديث العقل ... هو التساهل أمام الروايات الدالة على أن الإنسان مسير ... أو التساهل أمام الروايات الهائلة المدسوسة في الأحاديث الإسلامية من قبل مستسلمة أهل الكتاب، الدالة على التشبيه والتجسيم وإثبات الجهة". انتهى كلام السبحاني.^(٦)

وبالعوض الذي يعنيه الكاتب، هو الشيخ الألباني فقد عزی الكاتب في حاشية كتابه تضعيف ذلك البعض للحديثين المذكورين إلى "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة"، للألباني.

^(١) هذا كلام الألباني في "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة"، ٥٣/١.

^(٢) ما زال الكلام للسبحاني.

^(٣) انظر كلام ابن القيم في: المنار المنيف، ص ٣٨.

^(٤) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ٥٣/١.

^(٥) انظر: المرجع السابق، ٥٤٦/١، (٣٧٠).

^(٦) في "الحديث النبوي بين الرواية والتدريج"، ص ٦٣.

ولم يتفضل علينا الكاتب . بعد أن اعترض على قول من قال: إن أحاديث العقل كلها كذب . بإيراد حديث واحد في العقل يدعي صحته، والحديثان اللذان ذكرهما . نقلاً عن الشيخ الألباني . لم يدع صحتهما، ولم ينقل لنا كلام من صححهما .

ثم إن ابن القيم عندما قال . في كتابه المنار المنيف :: "أحاديث العقل كلها كذب"، وكذلك تضعيف غيره من المحدثين أحاديث العقل، كابن الجوزي في كتابه "الموضوعات"، حيث قال: "وقد زويت في العقول أحاديث كثيرة، ليس فيها شيء يثبت".^(١) لم يريدوا بذلك - رحمهم الله . إلغاء العقل وأهمية أعماله في الإسلام، بل قيمة العقل في الإسلام، وإشغاله بالفكر والنظر لمعرفة الحق، كل ذلك قد دعا إليه القرآن، وأثبتته السنة المشرفة، وسار على ذلك الصحابة . رضوان الله عليهم . ومن بعدهم، كما سبق بيانه في الفصل الثاني.

وابن القيم في الكتاب نفسه، بيّن الضوابط التي يُعرف بها الوضع في الحديث، وذكر منها: تكذيب الحسن له،^(٢) وذكر الأدلة على أن الخضر ليس بباق على مر العصور، وذكر منها عشرة أوجه من الأدلة العقلية على ذلك،^(٣) إلى غير ذلك مما نقلته عنه في المبحث الثاني من الفصل الثاني.

أما روايات الصفات والقدر التي زعم الكاتب أنها مَدسوسة من قبل مستسلمة أهل الكتاب، فقد سبق مناقشة ذلك في المبحث السابق، وبيان بطلانه.

^(١) الموضوعات، ١/١٢٣.

^(٢) انظر: المنار المنيف، ص ٣١.

^(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٣٨-٤٢.

المبحث الثالث

اتباع السلف

يقول جعفر السبحاني:

"إن المتبحرين برفض العقل كابن تيمية، والذهبي، وابن القيم الجوزية، ومن حذا حذوهم، قد اتخذوا لأنفسهم موقفاً مسبقاً في مجال أخذ الحديث ورفضه، فالمعيار عندهم هو اتباع السلف ومخالفة الخلف، أخذاً بقول الشاعر:

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

وكلامهم هذا نظير ما حكاه سبحانه عن المشركين، قال: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَفَيْنَا

عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا لَنَا فِي السَّبِيلِ ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(١). انتهى كلام

السبحاني.^(٢)

أما كلامه عن رفض هؤلاء الأئمة . رحمه الله . للعقل، فقد سبق الكلام على ذلك

في المبحث السابق، وفي الفصل الأول.

وكلامي هنا عن تَنْقِصِ السبحاني لمن جعل معياره اتباع السلف، وغمره من سلك

هذا المسلك، ولو قال ذلك أحد من غير المسلمين لكان الأمر، فما بعد الكفر ذنب، ولكن

أن يقول ذلك من يقول: إنه مسلم، ويتحدث باسم الإسلام، فهذا العجب!

وكيف وصل لنا هذا الدين الذي أكمله الله لنا، ووعد بحفظه، إلا عن طريق السلف

الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم . رضوان الله عليهم !

فالله سبحانه أمرنا في كتابه بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج بيت الله، وغيره ذلك

من فروض الدين، أما تفصيل ذلك فقد ورد في السنة المطهرة، التي أمرنا الله بطاعة صاحبها

^(١) سورة البقرة: ١٧٠.

^(٢) في "الحديث النبوي بين الرواية والدراية"، ص ٦٤.

عليه الصلاة والسلام: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۖ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝﴾^(١).

ولم تُنقل إلينا هذه السنة المشرفة إلا عن طريق هؤلاء السلف، فإذا عينا على من اتبع السلف، فممن تريد. أيها العائب. أن نعرف أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج الواردة لنا عن طريقهم؟! فمن أراد متاً أن نطرح الإسلام بالكلية، لما استطاع أن يأتي بأكثر من أن يقول: اتركوا اتباع السلف.

قال شارح العقيدة الطحاوية: "وإذا زعم أحد أنه يأخذ أصول الدين من كتاب الله، ثم لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا ينظر فيها، ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، المنقول إلينا عن الثقات النقلة، فإنما يتكلم برأيه".^(٢)

وما ذكرته هنا هو من أقوى الأدلة العقلية على عدالة السلف الصالح في الجملة، فإن الله أمرنا بالإسلام وأحكامه، ووعد من التزم بذلك وتوعد من خالفه، فإذا كان هؤلاء النقلة من الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتابعيهم ليسوا أهلاً لذلك، بل هم إما كذبة أو أصحاب غفلة ونسيان، ومع ذلك يأمرنا الله باتباع شرعه الذي لم يصل إلينا إلا محرفاً عن طريق هؤلاء النقلة، أليس هذا أمراً بالمستحيل؟! والله منزّه عن ذلك.

وجعل الكاتب. هداة الله. سلفنا الصالح، ومنهم الصحابة، بمثابة الذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، وهم عبدة الأصنام، أبناء عبدة الأصنام المذكورين في الآية، كأنه لم يسمع قول الله تعالى في كتابه الكريم عن صحابة رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ

^(١) سورة النساء: آية ٥٩.

^(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ص ١٩٦.

وَأَنْبَهُهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾. (١) ولم يسمع قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَعٍ أُخْرِجَ شَطَقُهُ فَفَازَرَهُ فَأَسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (٢) ولو حصلت منهم هفوات، فإن هذا قليل يسير مغمور في جنب محاسنهم، وكثرة مناقبهم، وصحبتهم للرسول صلى الله عليه وسلم، وبذلهم مهجهم وأموالهم في سبيل الله. (٣)

(١) سورة الفتح: آية ١٨.

(٢) سورة الفتح: آية ٢٩.

(٣) انظر: تأويل مختلف الحديث، ص ٤٠.

المبحث الرابع

حديث الجساسة

يقول خالد بن مبارك الوهبي:

"ورواية أخرى تنقلنا إلى عالم الفتن والملاحم وأحداث آخر الزمان، ففي صحيح مسلم من طريق تميم الداري، وكان نصرانياً فأسلم، وفيها أن الموج قد ألقاهم على شاطئ جزيرة، وجدوا فيها دابة تتكلم، واسمها الجساسة، ووجدوا فيها إنساناً عظيم الخلقة، موثقاً بقيود تمنعه من الانطلاق، وقال لهم إنه هو الدجال يوشك على الخروج.^(١)

طبعاً الإشكالية تكمن في أمور: نتساءل أين هذه الجزيرة؟ فما من بقعة من بقاع الأرض إلا وقد وطقتها أقدام البشر، وما من بقعة من بقاع الأرض إلا وقد مسحتها الأقمار الصناعية، ولم نجد دجلاً موثقاً، ولم نجد جساسة تتكلم، لديك قانون من خلال نظرك في كتاب الكون أن الحيوانات لا تتكلم، هذه الرواية تصور لنا عالماً أسطورياً آخر، وكذا تفاصيل هذه الملاحم، يمكن للباحث المجد أن يجد أصولها في سفر الرؤيا من العهد الجديد". انتهى كلام الوهبي.^(٢)

أقول: يجب أن يُعلم أن إحاطة البشر قاصرة مهما بلغوا من العلم، فهذه الأرض بقاراتها ومحيطاتها، لا يمكن الادعاء بأن البشر قد وطئوا كل شبرٍ منها، وأقرب مثالٍ لذلك ما يُسمى بالقطب المتجمد الشمالي والجنوبي، فما تزال مجاهلتهما خافية على البشر إلى اليوم. وهب أن الأقمار الصناعية قد مسحت كل بقعة من بقاع الأرض، ألا يمكن أن يكون شيء ما قد خفي على أصحاب هذه الأقمار، ونحن نجد في الواقع أن هناك ما قد

^(١) الحديث مطولاً رواه مسلم: كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب قصة الجساسة، ٢٢٦١/٣

(٢٩٤٢)، وفيه: "أن تميم الداري ركب سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لحم وجذام، فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفؤا إلى جزيرة..." الحديث.

^(٢) في "كيف نتعامل مع السنة النبوية"، ص ٤.

خفي عليهم، أفرئ حديثاً صحيحاً، ثبت بإسناد صحيح، عمن لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، لأن أصحاب هذه الأعمار لم يثبتوا لنا مصداق ذلك؟!

ثم إن الكاتب ينقد الحديث ويرده لأن الجساسة تكلمت في حال أن قانون الكون يقول: إن الحيوانات لا تتكلم، ونسي أو تناسى بأن الله قادر على إنطاق ما شاء، متى شاء، فقد تكلم المدهد مع سليمان . عليه السلام . يقول الله تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ ^(١). ﴿ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ يَنْتَبِهُ يَقِينٌ ﴾ ^(٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(٣). إلى آخر الآيات. ويقول سبحانه في سماع سليمان لكلام النمل: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَتَكُمْ لَا تَحْطِمَنَكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(٤). ^(٥) فالله قادر على إنطاق ما شاء من الحيوانات، وقادر على تفهيم من شاء من كلامهم.

^(١) سورة النمل: آية ٢٠.

^(٢) سورة النمل: الآيات ٢٢، ٢٣.

^(٣) سورة النمل: آية ١٨.

الفصل الرابع

ضوابط تمحيص السنة بالعقل

لتمحيص السنة بالعقل ضوابط، ينبغي الالتزام بها عند سلوك هذا المسلك، وقد جمعت في ذلك خمسة ضوابط، لم أقف على من جمعها أو نص عليها، وقد جمعتها من خلال تتبعي لكلام أهل العلم المتفرق في ذلك:

الضابط الأول: معرفة أن العقل له حدود في الإدراك، مهما بلغ صاحبه من العلم: فلو أخبر ثقة الناس قبل قرن من الزمن، أن هناك من يستطيع أن يتكلم مع مجموعة متفرقة في أطراف الأرض، في نفس الوقت، ويسمعون صوته ويرون صورته، وهو يسمع أصواتهم ويرى صورهم، في نفس الوقت؛ لرد ذلك الجميع، وقالوا عن القائل به: إما أن يكون كاذباً، أو تخبطه الشيطان من المس؛ بناءً على أن ذلك يرفضه العقل رفضاً قاطعاً في ذلك الوقت، ولا يمكن أن يتصوره بحال من الأحوال. وها نحن نجد أن ذلك قد أصبح اليوم واقعاً موجوداً ملموساً، عن طريق الأقمار الصناعية، والشبكة العالمية (الإنترنت)، ووسائل الاتصال الأخرى.

العقل قاصر في هذه الحياة، وله حدود لا يمكن أن يتخطاها، وهذا أمر ملاحظ في واقع حياتنا، فكثير ما يظهر لنا أن وجه الصواب في أمر ما هو كذا قطعاً، ونرى أن لا صواب غيره، وإذا بنا نكتشف بعد ذلك أن رأينا كان أبعد ما يكون عن الصواب، هذا في أمور الدنيا، فكيف إذا كان لها علاقة بتوجيه الشرع، الذي تعتمد أخباره وأوامره أحياناً على أمور لا يدركها العقل.

وفي هذا يقول الصحابي الجليل سهل بن حنيف . رضي الله عنه .: "يا أيها الناس، اتهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيته يوم أبي جندل، ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لرددته".^(١)

ويوم أبي جندل الذي يشير إليه سهل بن حنيف، كان في صلح الحديبية. روى المسور بن مخرمة، ومروان، في حديث طويل لهما، وفيه: "فقال سهيل بن عمرو (لرسول ﷺ): على أن لا يأتيك منا رجل . وإن كان على دينك . إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة، حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد، أول ما أقاضيك عليه أن تردّه إلي قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أُرُدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟! ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله".^(٢)

ثم ظهر للصحابه . رضوان الله عليهم . بعد ذلك أن صلح الحديبية كان فيه فتح عظيم للمسلمين، خلاف ما ظهر لهم، ومن مظاهر هذا الفتح ما جاء في نفس الرواية السابقة: "وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بغير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوه وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده بالله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم".

الضابط الثاني: التسليم ابتداءً بما جاء بالنقل الصحيح:

إذا علمنا أن للعقل حدوداً لا يستطيع أن يتجاوزها، وهذا ملاحظ في واقع الحياة، فضلاً عن توجيهات الشرع، فلا بد أن نُسلم بما صح على لسان رسوله صلى الله عليه

^(١) رواه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس،

٢٦٦٥/٦ (٦٨٧٨). ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية، ١٤١١/٢ (١٧٨٥).

^(٢) رواه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، ٩٧٤/٢ (٢٥٨١، ٢٥٨٢).

وسلم، وهو المبلغ عن ربه، حتى لو حارت فيه عقولنا، فقد يأتي زمان يظهر فيه لأهله وجه الصواب فيما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة، والمهم علينا أن نسلم، وهذا هو صفة المؤمنين الذين امتدحهم الله بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١).

قال ابن كثير . في شرح الآية . "وقوله إخباراً عنهم أنهم يقولون: آمنا به، أي: المتشابه، كل من عند ربنا، أي: الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، كل واحد منهم يصدق الآخر، ويشهد له؛ لأن الجميع من عند الله، وليس من عند الله شيء مختلف ولا متضاد، ولهذا قال تعالى: (وما يذكر إلا أولو الأبواب)، أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة". (٢)

وهذه نكتة بديعة أن يجعل من يسلم الأمر لله في ما تحار فيه العقول، هم أهل العقول؛ لأن من بلغ الرتبة العليا في العلم حتى في علوم الدنيا، يتضح عنده سعة العلم، وبُعد آفاقه، فعندها يجزم بأن علمه قليل بالنسبة لآفاق الكون العظيمة.

وقد امتدح الله الذين يؤمنون بالغيب، فقال جل شأنه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣). ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٤). وهذا الغيب من الأمور التي قد تحار فيها العقول.

الضابط الثالث: العمل على الجمع بين صحيح السنة والعقل الصريح أولاً:

لا نجد . والله الحمد . تعارضاً بين السنة الصحيحة والعقل الصريح، وإن وجد فعلينا السعي إلى الجمع بين ما يظهر فيه التعارض.

(١) سورة آل عمران: آية ٧.

(٢) تفسير ابن كثير، ١٠ / ٢.

(٣) سورة البقرة: آية ٣.

(٤) سورة البقرة: آية ٥.

يقول ابن حجر . في معرفة الحديث الموضوع .: "ومنها ما يؤخذ من حال المروي، كأن يكون مناقضاً لنص القرآن، أو السنة المتواترة، أو الإجماع، أو صريح العقل، حيث لا يقبل شيء من ذلك التأويل".^(١)

فقوله: "حيث لا يقبل شيء من ذلك التأويل"، إشارة إلى ضرورة العمل على الجمع بين ما يظهر فيه التعارض، قبل النظر في رد ما صح به النقل.

وقال . أيضاً .: "جعل الأصوليون من دلائل الوضع أن يخالف العقل، ولا يقبل تأويلاً". إلى أن قال: "وهذا لا يتأتى إلا حيث لا يمكن الجمع بوجه من الوجوه، أما مع إمكان الجمع، فلا".^(٢)

الضابط الرابع: عدم التصدر لنقد السنة بالعقل إلا للعلماء العارفين:

إن نقد المتن أشد صعوبة من نقد السند، ولذا يجب أن لا يتصدر لنقد متون السنة . ومنه نقد السنة بالعقل . إلا لمن بلغ الرتبة العليا في العلم والمعرفة، وفهم القرآن الكريم، ودراسة السنن والآثار؛ لمعرفة ما ينبغي أن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وما لا ينسب إليه، مع تمكنه من اللغة العربية، التي هي لغة الكتاب والسنة، ثم يكون ذا فهم واسع وإدراك عميق بالثوابت العقلية التي يريد أن ينقد السنة من خلالها.

يقول الإمام ابن القيم . رحمه الله .:

"وسئلت هل يمكن معرفة الحديث الموضوع بضابط، من غير أن ينظر في سنده؟ فهذا سؤال عظيم القدر، وإنما يعلم ذلك من تضلع في معرفة السنن الصحيحة، واختلطت بلحمه ودمه، وصار له فيها ملكة، وصار له اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار، ومعرفة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه، فيما يأمر به وينهى عنه، ويخبر عنه ويدعو له . فمثل هذا يعرف من أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه وكلامه، وما يجوز أن يخبر به وما لا يجوز، ما لا يعرفه غيره".^(٣)

^(١) نزهة النظر، ص ٤٢ .

^(٢) النكت على كتاب ابن الصلاح، ص ٣٦١ .

^(٣) المنار المنيف في الصحيح والضعيف، ص ٢٦ .

وقال ابن حجر . في الطرق التي بها يُعرف الحديث الموضوع :: "لأهل العلم بالحديث ملكة قوية يميزون بها ذلك، وإنما يقوم بذلك منهم من يكون اطلاعه تاماً، وذهنه ثاقباً، وفهمه قوياً، ومعرفته بالقرائن الدالة على ذلك متمكنة".^(١)

الضابط الخامس: عند الحاجة إلى رد السنة الصحيحة بالعقل الصريح، ينبغي أن يكون هناك اتفاق بين أصحاب العقول السليمة على وجود هذا التعارض:

إذا اضطررنا إلى رد السنة الصحيحة بالعقل الصريح، بعد أن لم تتمكن من الجمع . وهذا يعز وجوده .، فينبغي أن يكون هناك اتفاق بين العلماء العارفين أصحاب العقول السليمة؛ لأن المعقول الصريح لا يمكن أن يختلف فيه العقول السليمة، فلا يمكن أن يختلف اثنان من أصحاب العقول أن الأرض تحتنا، أو أن الإنسان لا يمكن أن يكون بذاته في مكانين في وقت واحد، أما إذا كان هناك خلاف، فمنهم من يقول: إن هذا يخالف المعقول، وآخر يقول: إن هذا لا يخالفه، فعندها يجب التوقف عن ذلك، والأخذ بظاهر النص، مادام أنه ورد بسند صحيح.

ولو فتحنا المجال لكل من لا يروق له نص، أو رأى أنه يخالف أصول مذهبه، فيرده بناء على أنه يخالف المعقول، لرددنا كثيراً من النصوص الشرعية، ولما بقي لنا ما نستند عليه في الدين إلا عقول الرجال، فالعقول بطبعها مختلفة، بدلالة القرآن: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ﴾،^(٢) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَخْتَلَفُ الْأَسْمَاءَ وَالْوَلَدَ﴾.^(٣) وبدلالة الواقع المحسوس، فانظر إلى اختلاف الناس في واقع حياتهم في قرية ما، أو مدينة ما، فضلاً عن جميع المسلمين في أنحاء العالم، وهنا يأتي دور النص الذي ينبغي أن تأتلف عليه القلوب.

^(١) نزهة النظر، ص ٤١.

^(٢) سورة هود: آية ١١٨، ١١٩.

^(٣) سورة الروم: آية ٢٢.

وفي ذلك يقول ابن قتيبة: "ولو أردنا . رحمك الله . أن ننتقل عن أصحاب الحديث،
ونرغب عنهم، إلى أصحاب الكلام، ونرغب فيهم، لخرجنا من اجتماع إلى تشتت، وعن
نظام إلى تفرق، وعن اتفاق إلى اختلاف".^(١)
ويقول شارح العقيدة الطحاوية: "إذ العقول متفاوتة، والشبهات كثيرة، والشياطين لا
تزال تلقي الوسوس في النفوس".^(٢)

^(١) تأويل مختلف الحديث، ص ٣٦.

^(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٠٢.